

دير الزور

مركز محافظة الفرات وهي محافظة كبيرة مترامية الأطراف واقعة بين محافظات حلب والجزيرة وحمص وحماه وتمتد حدودها إلى حدود العراق. ويتبعها ثلاثة أقضية هي: الرقة والميادين وأبو كمال. تبعد عن عاصمة سورية مقدار (450) كم عن طريق دمشق. دير الزور الصحراوي غير المعبد إلا في أوله. وتبعد عن حلب مقدار (335) كم وبينهما طريق أحسن من طريق دمشق لأن تليته معبد والتلت الآخر صالح لسير السيارات بسهولة إلا في أيام الشتاء حيث يصعب السير قليلاً، وعلى الأخص عند قرية (أبي هريرة) حيث تكثر المستنقعات. وقد كانت المراسلات والمخابرات بينها وبين دمشق وحلب والقامشلي بواسطة البرق اللاسلكي، ولكن من مدة ثلاثة أو أربعة أشهر تم تمديد خط بينها وبين حلب، وصارت حلب هي المدينة الوحيدة التي تتصل معها الدير تلفونياً وهناك بريد منظم بينها وبين حلب والجزيرة يُنقل بواسطة شركات السيارات.

دير الزور مدينة جميلة جاثمة على ضفة نهر الفرات العظيم اليمنى، ويمر من وسطها فرع من هذا النهر، كما يمر العاصي من وسط حماه، وتحيط بها سهول واسعة هي سهول الفرات الممتازة ذات التربة السوداء الخصبة. وهناك بعض التلال الصغيرة والأودية البسيطة، ويقوم إلى جانبها جبل (البشرى) الذي أمكن استخراج الغار منه، كما أنه بالقرب منها، على طريق دير الزور. حلب، تمتد بحيرة من المالح لا تتضب صيفاً شتاءً، وتسبح فيها أسراب من البط المائي فتؤلف منظراً بحرياً ممتازاً من الماء الأزرق والتموجات والتجعدات. أما العيون المائية فمعدودة تقريباً والآبار المحفورة في الدير هي آبار مالحة رغماً عن أنها لا تبعد عن النهر العذب إلا بعداً قليلاً جداً، فأبار المنازل لا تصلح إلا لسقي

النباتات وغسل الآنية، ومياه الشرب تؤخذ من النهر وتنتقل على دواب وتباع في الطرقات. وكثيراً ما تؤمن بعض النسوة هذه المهمة، فتجد امرأة تحمل على ظهرها دناً تملؤه من النهر وتحمله إلى البيوت، وتبيعه بدراهم قليلة، وتقبض ثمنه إما حالاً أو أسبوعياً أو شهرياً. وكثيراً ما يحمل الأولاد قضيباً من الخشب يعلقون على طرفيه وعاءين فارغين يملؤونها ويرجعون بهما وهم يلهثون من التعب والعناء. لهذا، ومن مدة غير قليلة قامت بلدية دير الزور بمشروع جر المياه من النهر وتصفيتها وتوزيعها فأمنت بذلك المياه النظيفة للأهالي، وبذلك قلّت أهمية نقل الماء من النهر إلى البيوت، كما أنها من مدة سنة ونصف أتمت تمديد المياه إلى أبنية المدارس ووضعت مضخات في الشوارع يستقي منها الأهالي الفقراء على مثال ما هو موجود في دمشق وحمص وغيرها. يا له من منظر!! منظر النساء والأولاد وهم يتراكمون نحو المضخة ويجتمعون حولها يتصايحون ويتقاتلون وتريد الواحدة أن تسبق الأخرى وتملاً إناءها قبلها، فالمضخات قليلة العدد، والحاجة للماء شديدة.

أحوال دير الزور الجوية: الصيف شديد الحرارة حتى أن البيضة حينما توضع في الشمس فوق الرمال تسلق بعد مدة وجيزة والماء يسخن بسرعة، والحر يلفح الوجوه ويهرب الأهالي المقتدرون إلى المصايف السورية أو اللبنانية، ويبدأ الحر من شهر مايس ولا ينتهي إلا في أواخر أيلول. أما البرد فهو شديد في بعض السنوات وبسيط في الأخرى وعلى كل فإن الثلوج قليلة جداً. والأمطار لا تقاس بأمطار البلدان الداخلية والساحلية. وقد تتغير الحرارة في الصيف ليلاً عن النهار فيكون الليل هادئاً. ناعماً ويكون النهار حاراً جافاً، ولا عجب فدير الزور واقعة وسط الصحراء. والليالي وماذا أذكر عن الليالي؟ تلك الليالي المقمرة، الصافية السماء، الهادئة النسيم، التي يسمع فيها خرير مياه النهر من مسافات بعيدة، ويخيم فوقها هدوء الليل وسكونه وتسبح فيها الروح في جو لا متناه من الآمال والأحلام. ففي

سكون الليل، وبعد قضاء نهار كله حَزَّ وضجر يتوزع الناس جماعاتٍ جماعاتٍ ويسرحون في وسط البراري أو على ضفاف الفرات، يُنشدون الراحة والبرودة والمناظر الخلابة. تلك هي ليالي الصحراء الفاتنة الخالدة. وتهب على المدينة رياح شديدة صحراوية كالأعاصير تحمل الغبار ولها علامات عندهم ودلائل، فبينما يكون السوق مفتوحاً والناس يبيعون ويشتررون إذ يخف الناس سراعاً لإغلاق حوانيتهم وتقفز الشوارع من المارة، وتهب أعاصير شديدة من الغبار تلون الجو بلون أسود قاتم، وتحجب الشمس، فتُغلق أبواب الغرف، وينزوي السكان في أطرافها ينتظرون زوال (العجة) كما يسمونها، ولا يلبث الجو أن يتلون بلون أحمر متأجج، ثم بلون أصفر ثم يعود إلى لونه الطبيعي وهذا ما يؤذن بزوال (العجة) فيخرج الناس من الغرف فيرون أن أرض الدار والغرف كلها قد ملئت بالغبار والرمل الناعم حتى ولو كانت محكمة الإغلاق، فالعبار يدخل من كوة المدفأة، أو ثقب المفتاح.

حالة الأراضي وامتلاكها وزراعتها: الأراضي كما قلت، سهلة خصبة، قليلة الأحجار، رملية لا ترتفع عن ماء النهر إلا قليلاً فيسهل إسقاؤها، وتصلح لمختلف أنواع المزروعات. وهي ملك للأهالي ولأغنياء منهم بصورة خاصة ويشغل فيها فلاحون من (الشوايا) يمتدون على طول مجرى النهر وأغلب هذه الأراضي يزرع سقياً بواسطة (الغرافات) التي تخرج الماء من النهر وترسله في سواقٍ صغيرة فتسقي الأراضي. والغرافات ممتدة على طول النهر إلى حدود العراق وتديرها الحمير والبغال فتتشأ عن دورانها أصوات جميلة وتؤلف منظراً بديعاً. وقد انتشرت الآن، لأجل الإسقاء، المحركات الكهربائية التي تنضح الماء بكثرة وترسله في سواقٍ كبيرة أشبه ما تكون بالأنهار الصغيرة أو الجداول، وتسقي مسافات شاسعة. من هنا نستنتج أن اعتماد الأهالي في إرواء الأراضي هو على المحركات والغرافات لا على مياه الأمطار. ففي الوقت الذي يضطرب فيه الفلاح الحوراني

من انقطاع المطر نرى أن الفلاح الديري عنده الأمطار تأتي في الأهمية في الدرجة الثانية. فأول ما يخاف منه الأهالي على موسمهم هو فيضان النهر، فهو حين فيض ترتفع مياهه إلى أربعة أمتار تقريباً فتغرق ما حولها من المزروعات وتلفها. ويبدأ الفيضان منذ أول نيسان، فينشئ الأهالي السدود ويتلقفون أخبار ارتفاع الماء ما بين لحظة ولحظة وتجيئهم هذه الأخبار لاسلكياً من مدينة جرابلس على الحدود السورية فيتأهبون وكثيراً ما جرفت المياه الغرافات الموجودة على ضفة النهر وكثيراً ما غمرت جزءاً من البلدة وعلى الأخص الحي المسمى بـ (الحويقة) والواقع بين فرع الفرات الصغير الذي يمر من منتصف البلدة وبين النهر الأصلي. فالأهالي حينما يهددهم الفيضان يصبحون كلهم كتلة واحدة، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وكبيرهم وصغيرهم، أمام درء أخطاره يحملون المعاول والمجارف، ويسيرون غالباً ليلاً وهم ينشدون أناشيد حماسية شعبية ويحملون المصابيح ويذهبون إلى ضفاف النهر المنخفض فيعلّونها ويحكمون سد الفرجات أما النهر فيكون مزمجرأ، هادراً، يسمع صوته من بعيد.

ويعتني الأهالي اعتناءً عظيماً بزراعة الحبوب وعلى الأخص القمح والشعير اللذين يدران عليهم غلات وافرة ويأتيانهم بأصناف ممتازة. وعماد حياة السكان على الزراعة وتربية المواشي. أما الأثمار فقليلة لقلة البساتين لأن صاحب الأرض يفضل زرعها على جعلها بستاناً ولقلة الأخصائيين في فن البستنة ومع ذلك فهناك بعض الأثمار الممتازة وربما يستغرب الناس وجود تفاح يضاهي تفاح الزيداني بحلاوته وكثرته، ووجود خسٍ وتوتٍ يطلق عليه اسم (فرطوس) أما العنب والبرتقال والموز فيؤتى بها كلها من المدن الداخلية وأسعارها تبقى غالية. والبطيخ الأصفر (القاقون) من أشهر حاصلات الدير وهو حلو جداً. واليقطين كبير أيضاً. وتوجد أنواع من الخضروات غريبة حقاً: فالبندورة صغيرة كثيراً، بقدر كرات (الدحل) التي يلعب بها الأطفال الصغار، أما الباذنجان فبالعكس كبير وطويل

وضخم فإذا أراد المرء أن يطبخ أكلة (محشي) من الباذنجان فيكفيه لذلك عدة باذنجانات وواحدة منها تكفي الشخص ليشبع ويملاً بطنه. والفجل كثير وحلو والسكان يأكلونه مع كل أنواع الطعام، ويأكلونه لوحده، وكثيراً ما رأينا الطلاب يحضرون معهم في جيوبهم فجلات يتقاتلون عليها. والديري عنده اعتقاد بأن الفجل هو من أحسن الأدوية. أما البامياء فتباع بالقرون لا بالأوزان فالشخص يشتري مائة قرن أو مائتين أو ثلاثمائة الخ..

الحيوانات متنوعة: فهناك الخيول العربية الأصيلة، التي يقصدها كثير من أهل الداخل والساحل والأجانب لمشترياتهم. وهناك الحمير التي تستورد غالباً من العراق ويتاجر بها الأهالي مع أهالي القلمون وحمص وغيرها، وهناك الدجاج المنتشر في مختلف البيوت والرخيص الثمن حتى أن أكلة الدجاج تكلف أقل مما تكلفه أكلة من الخضروات، وبيض الدجاج رخيص جداً ولولا الشمس لكان أرخص مما هو عليه الآن. وهناك الأغنام المنتشرة حول دير الزور والتي يرعاها قبائل البدو والتي تدر على المدينة أنواع الألبان، ويكفي للدلالة على ذلك أن يقف الإنسان على جسر الفرات صباحاً فيشاهد ورود البدو والفلاحين وهم يحملون الألبان والحليب والزبدة والقشدة. غير أن اللبن مائع أكثر من اللازم ولا يقاس بأنواع اللبن الجامد الذي يكثر في حماه وحمص، والزبدة وافرة ورخيصة الثمن، والحليب تنادي عليه النسوة منذ الصباح الباكر فهو يملأ البيوت الغنية والفقيرة. والسمن الديري مشهور بجودته ومالي أسواق المدن السورية. هذا ولا يغرب عن ذهننا أهمية الأسماك التي تستخرج من نهر الفرات وتمتاز عن سمك العاصي بضخامتها وسمنها وشدة بياضها الناصع والتي تشحن بكميات وافرة إلى فلسطين. ومن النباتات التي تؤلف وارداً هاماً من موارد الدير هي الكمأة فالأهالي ينظفونها ويبيسونها ويخزنونها لأيام الشتاء، أو يشحنونها إلى دمشق وحلب.

الدور والأزقة والمباني: الدور متشابهة الهندسة تقريباً فهناك في كل دار بيتان

بينهما كاشف وساحة سماوية، وبئر، وسلم للصعود على السطح. وعدد طبقات البناء لا يتجاوز الثلاثة طبقات ودور الأغنياء مبنية على الطراز الحديث، عالية، يصعد إليها بدرجتين أو ثلاث درجات، وتكون مسقوفة غالباً والحدائق قليلة في البيوت وأما بيوت الخلاء فأكثرها على الأسطح ولها حفرة داخل البيت أو خارجه والأزقة خالية من المجاريير العامة وهذا نقص عظيم في بلدة عامرة كدير الزور. الجدران من الأحجار غير المنحوتة غالباً أو المنحوتة لعلو متر من الأسفل فقط وغالباً لا تستر الجدران الخارجية بالطين أو الإسمنت أو البياض إلا دور الأغنياء. وأبواب المنازل تبنى غالباً من الحجر الرخامي ولها مفاتيح كبيرة جداً يصعب حملها، وإطارات النوافذ من الرخام أيضاً. ولا يستعمل الإسمنت في البناء إلا نادراً فالأسطح وأرض الغرف وجدرانها تطلّى بالجص، والجص كثير في دير الزور وشائع الاستعمال وهو يمتص الماء كالبيلون ولذا فإن غسل أرض الغرف بالماء غير شائع الاستعمال بل يكفي بكنسها ورشها رشاً بسيطاً. والبناء سهل جداً فليس هناك إلا تركيب الأحجار ووضع الجص بينها بدلاً من الطين والكلس. هذا وقد ازداد عدد المنازل ازدياداً فاحشاً في السنين الأخيرة وكثرت البنايات وامتدت.

أما الأزقة فهي غير مبلطة إلا أنه بوشر بطليها بالقار ولن يمض وقت طويل إلا وتصبح مطلية كلها. ومن الصعب جداً السير في الأزقة أيام الشتاء لأن المستنقعات تكثر والطين يعرقل السير. إن الشيء الداعي للغبطة هو أن جميع شوارع الدير وأزقتها مستقيمة تماماً والشخص الغريب لا يقدر أن يفرق بين زقاق وآخر إلا بصعوبة لأنها كلها مستقيمة ومتشابهة بالبنايات. فهناك ثلاثة شوارع كبيرة تجتاز المدينة من أولها إلى آخرها وأحدها يمر من منتصف المدينة تماماً وعلى طرفيه الحوانيت والمقاهي وهو أهم شارع ومنها تتفرع الأزقة الممتدة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب وهي مستقيمة أيضاً. وفي منتصف

البلدة حي كبير هو حي الدير العتيق وفيه أبنية دير الزور القديمة التي تشكل البلدة الأصلية، بناياته غير صحية، وأزقته ضيقة وغير مستقيمة ولا يتجاوز عرضها المتر والنصف.

من الأبنية الحكومية الكبيرة هو بناء دار الحكومة ويحوي جميع دوائر المالية والداخلية والمعارف ومقر محافظ الفرات ويتفرع عنه بناء إلى جانبه الأيسر فيه المحاكم بأنواعها، وبناء إلى جانبه الأيمن فيه دائرة الدرك والشرطة. وهذه البناية بطبقتين من الحجر وأمامها حديقة حاوية مختلف أنواع الزهور وجميلة الهندسة ويرجع تاريخ هذا البناء إلى أيام الحكومة التركية وفي الدير مستشفى عظيم هو المستشفى الأميري، بنيته واسعة تحيط بها حدائق غناء وتشرف على نهر الفرات. وهناك كنيسة عظيمة للآباء الكبوشيين، ومستشفى وطني بنيته ضخمة أيضاً هذا عدا مستشفى الجيش وأبنيته، وعدا دائرة مندوب المفوض السامي الحاوية على حديقة هي والحق يقال من أعظم الحدائق وأدهشها وأحسنها ترتيباً واحتواء لمختلف أنواع الزهور وفيها ملعب للتنس والرياضة، وهناك خمسة مساجد كبيرة لها مآذن، أسطوانية عالية منتهية بقمة مخروطية.

جسر الفرات الكبير المعلق: قلنا إنه يمر من وسط المدينة فرع من نهر الفرات يقسم المدينة إلى شطرين غير متساويين ويصل ما بين هذين القسمين جسر هو كغيره من الجسور إلا أنه يمتاز بطوله وقوته فهو مبني على سبع قناطر من الحجر الصلد وعلى طرفيه درابزين من الحديد المشبك.

وهذا الجسر الأول يسمى بالجسر الصغير. أما الجسر الكبير، أكبر جسر في البلاد السورية وأطولها، فهو قائم على نهر الفرات الأصلي، خارج المدينة، وطوله (500) م وهو جسر معلق بقضبان من الحديد المفتول ويرتكز على أربعة أسطوانات من الحجر الصلد يربط بها بالسلاسل وعرضه عرض سيارة الشمس وعلى طرفيه ممشيان ضيقان يسير عليهما المارة، وعلى طرفيه حديد مشبك

بأسلاك قوية وحينما يمر عليه حيوان أو سيارة أو عجلة نراه يهتز ويرقص وتقوم على طرفيه غرفتان تلفونيتان لتأمين السير عليه لأنه لا يمكن أن تمر عليه سيارتان باتجاهين مختلفين. كما أنه تقوم عنده نقطة من رجال الجمرک لمنع تهريب البضائع ولاستيفاء الجمارک فهو والحالة هذه حلقة الاتصال بين سورية والجزيرة، وقد أتى بفوائد قيمة في تأمين التجارة والمواصلات وكلف بناؤه غالباً وهو من أعظم المنشآت في دير الزور بل في سورية كلها والعبور عليه مجاناً. وعلى ضفة النهر اليسرى، عند انتهاء الجسر يقوم مشتل زراعي كبير فيه مختلف أنواع الثمار والزهور أما إنارة المدينة فقد كانت بواسطة المصابيح البترولية الكبيرة ولكن في 1938 تم إنشاء شركة كهرياء دير الزور الوطنية وتم تنوير المدينة بالأنوار الكهربائية وتلك خطوة كبيرة خطتها عروس الفرات في طريق التقدم والعمران.

سكان دير الزور: يبلغ عدد السكان (60) ألف نسمة تقريباً وقد كانوا إلى زمن قريب لا يزيدون عن الثلاثين ألفاً، وما هذا الازدياد إلا لكثرة الهجرة إلى الدير بسبب موقعها التجاري والزراعي الممتاز وبسبب وجود شركة البترول فيها. والسكان الأصليون يعدون على الأصابع وأما الباقون فكلهم استوطنوها حديثاً ورضوا بها مقراً ومقاماً. وقد هجر حياة البراري والخلاء بعض الشوايا وألفوا حياة المدينة. الأكثرية الساحقة من السكان يدينون بالديانة الإسلامية السنية وفيهم قسم بسيط من المسيحيين وقسم ضئيل من الأرمن واليهود ومعظم السكان يعتمدون على الزراعة وتربية الأغنام والاشتغال ببعض الصناعات اليدوية كالخياطة الإفرنجية، والحدادة، والنجارة، وصنع الأحذية الخاصة بالدير وهي (الجواريح). ويقسم السكان إلى قسمين كبيرين لابد أن ينتسب إلى أحدهما أفراد سكان الدير وهما (الوسطيون والشرقيون) ومن العجب حقاً أن القسم الأول يسكن أفراداه في غربي المدينة والقسم الثاني يسكن أفراداه في شرقها وبين هذين القسمين من السكان

عداوة قديمة ومشاحنات كثيرة انقرضت هذه العداوة والمشاحنات من مدة طويلة، ولكنها عادت إلى الظهور 1938 فقام كل سبط، بعد حادثة بسيطة، يدعي القوة والعزة في سبطه، ولكن العقلاء تداركوا الأمر وأطفؤوا الحادث وأظن أن هذه الأفكار والعنعات لن تعود لأن النشء الحديث والشباب الناهض أدرك ضررها. وهل هناك داء يفتك في جسم الأمة أعظم من داء التفرقة؟

العادات والتقاليد: في حفلات الزواج تقام الأفراح كالعادة ويحمل الحمالون الأطعمة والحلويات على رؤوسهم ويذهبون بها إلى بيت (العريس)، وتحمل السيارات النساء والأولاد. وتمر بهم من الأزقة والشوارع وهم يهزجون بأهازيج الفرح، وأعظم المآكل المستعملة في الأعراس هو طعام (الثرود) الذي يعد الديريون في صنعه من الأخصائيين. وأفراحهم عند ختان الأطفال أو استقبال الحجاج هي كالأفراح التي تقام في جميع البلاد السورية تماماً.

أما في المآتم فليدير الزور عادات خاصة هي أشبه ما تكون بعبادات البداوة. فالنساء يلطمن خدودهن ويندبن الفقيد بأنغام حزينة جداً وعلى دقات الدفوف، ويضربن على صدورهن ويرثين الفقيد بجمال توافق المقام تلقفنها عن بعضهن، ويذهبن كل صباح إلى المقبرة فيبقيين عند قبر الميت إلى المساء لإيناسه كما يزعمن، وتدوم هذه الحالة عشرة أيام. ويوضع المتوفى في تابوت غالباً ويدفن وهو به. أما التعزية بعد دفن الميت في المقبرة فغير متبع إذ إن المشيعين يبقون في المقبرة إلى حين انتهاء الدفن تماماً فيصيح شخصٌ أخصائيٌّ قائلاً: (الفاتحة) فيقرأ المشيعون سورة الفاتحة ويرجعون من حيث أتوا. والتعزية تكون في منزل أهل الفقيد وتبقى ثلاثة أيام وكيفية إجرائها هو أن يدخل الرجل المعزي إلى الغرفة الموجود بها أهل الفقيد وقبل أن يجلس أو يسلم يقول: (الفاتحة) فيقرأ كل الحاضرين سورة الفاتحة ويهبونها لروح الفقيد، ثم يسلمون على الداخل وهكذا.. والقبور في دير الزور منحوت أو مرسوم على بعضها، بعض الأدوات التي كان

يشتغل بها الميت أو يستعملها أو يحبها. فعلى بعض القبور صور مسدس أو خنجر أو مشط رصاص، دلالة على أن الفقيد شاب شجاع. وعلى بعضها مرآة، ومشط، وعقد، وسوار، دلالة على أن الفقيدة هي امرأة شابة متأنقة في مقتبل العمر.

اللباس يختلف عند المتعلمين عن غير المتعلمين. فالمتعلمون أو الأغنياء يلبسون الألبسة الإفرنجية الحديثة ويتأنقون كثيراً في لباسهم ويسيروا في الطرقات مكشوفي الرؤوس بحرية تامة لا رقيب ولا منتقد، وأما الباقون من الرجال فيلبسون الأثواب وفوقها الرداء ولا يخلعون الطرابيش. والنساء يلبسن الأثواب الطويلة المزركشة ويضعن بدلاً عن الملاءات، عباءات من الحرير الخفيف ذي الألوان المختلفة المتنوعة، ويسترن شعرهن بمنديل عادي، يسترن رأسهن وشعرهن ووجههن تماماً. وهن يتزين بالأساور والعقود الذهبية ويضعن في أرجلهن فوق الجوارب الخلاخل الفضية، والأطفال يهمل أمر لباسهم ونظافتهم كثيراً حينما يكونون في سن الصغر، فالطفل يمشي حافي القدمين لا يستره إلا ثوب واحد ويلعب في الأزقة بالتراب، مكشوف الرأس أو مستورة بلباس رأس يميز الطفل الديري عن جميع الأطفال في حمص وحماه وحلب ودمشق وهو لباس البيرية Beret وعلى كل فمن الواجب على أهل الطفل أن يعتنوا بنظافته وتربيته منذ الصغر ليساعدوا المدرسة على تهذيب ولدهم وتربيته.

الحياة العائلية عند الطبقة المتوسطة بسيطة للغاية فالمرأة تنادي زوجها باسمه والزوج ينادي زوجته باسمها والأسماء تحرف عن أصلها كثيراً فالبنت التي اسمها (احسان) يحرف اسمها إلى (حسونة) ومن العادات المستهجنة المكروهة ديانة هي حذف كلمة (عبد) من الأسماء التي تبدأ بها فالشخص الذي اسمه (عبد الوهاب) ينادونه بكلمة (وهاب) فقط تخفيفاً والذي اسمه (عبد اللطيف) ينادونه بكلمة (لطيف) وهذه العادات ربما كانت منتشرة في بعض البلاد السورية غير أنها

كثيرة الاستعمال في دير الزور .

كيفية قضاء أوقات الفراغ: إن أنس كل شيء من ذكريات الدير فإنني لا أنسى تلك الساعات التي نقضيها مساءً أو صباحاً على ضفة نهر الفرات، في وسط مقاهٍ طبيعية، تحت ظلال الأشجار الوارفة العالية، تلك المقاهي التي يسميها الأهالي (جراديق) فالنهر يسير بهدوء.. وسكون.. والأنوار الكهربائية تتلألأ على صفحة المياه كما تتلألأ النجوم في كبد السماء والأشجار.. العالية.. المنتصبة تترقق خيالها على وجه الماء، وتهتز أغصانها مع سريان النسيم العليل، تحت كل شجرة يلتئم شمل عدة أشخاص، يجلسون على كراسي خشبية طبيعية يسمرون ويضحكون ويعبثون. وإن أنس كل شيء من ذكريات الدير فإنني لا أنسى الوقفات الخالدات التي كنا نقفها على جسر الفرات ممسكين بشرطانه نهزها ونجرب قوتها، ونتأمل جمال الطبيعة المتجسم في منظر النهر الواسع كالبحر، الهادئ كالصحراء، الساكن كسكون الليل، ترسل الشمس أشعتها الذهبية وقت الأصيل تودع الماء وتلونه بألوان قوس قزح، وهنا في وسط النهر جزيرة، وهناك غراف، ومن بعيد يظهر قارب صغير يسير ببطء وهدوء. جمال، وجلال، وروعة.

وفي أيام الربيع يقضي الناس أوقات فراغهم فيسرحون ويتجهون نحو تلال في جنوبي المدينة يطلق عليها اسم (الجبل) وما هي بالجبل، يتفرقون على تلك التلال وكل طائفة تحمل طعامها معها وتحمل (حاكياً) لتضيف إلى جمال الطبيعة جمال الصوت. وفي الليل يقضي الرجال أوقات الفراغ في الذهاب إلى قاعة السينما، وهناك قاعتان الأولى قاعة سينما (أمبير) والثانية قاعة (سينما روكسي) وقد افتتح في 1938 ناد عائلي يجمع شمل عوائل الدير المتعلمة الراقية ولكنه لم يشجع من قبل الأهالي كاللازم فاضطر لإغلاق أبوابه.

النساء يقمن بحاجات البيت كلها من طبخ وتنظيف وكثيراً ما يقمن بوظيفة البيع والشراء، ففي بضعة بيوت توجد مخازن كمخازن السوق تماماً فيها مختلف

أنواع الأقمشة تقصدها للشراء النساء اللواتي لا يرغبن النزول إلى السواق. وبعض النسوة يبعن في البيت الحليب واللبن والكمأة وينادين عليها في الطرقات. ويتقن الرجال رقص الدبكة، فيدبكون أيام الأفراح والأعياد ببراعة ويغنون أغاني جميلة فهناك أغنية مطلعها:

يا عويد الزل الديراني يا عويد الزل
يسلم لي حبيب القلب احلى من الكل
وأشهر أغنية يترنم بها الصغار والكبار، شمس الضحى ميالا، شمس الضحى ميالا

لا لا ولــــك لا لا ولا لا شمس الضحى ميالا
لا لا ولــــك لا لا ولا لا بنات الأوام يا هلا
كل الغــــزلان وردت إلا غزالــــي لا لا
نودي ولك حلوة نودي من الجسر للعمودي
والله ان ماعطوني حبي لا ضررهم بالبارودي
وقد انتشرت هذه الأغنية في مدينة حماه كثيراً، ويغنيها الأهالي بنغمة حزينة مؤلمة.

الحالة الصحية والأخلاقية والثقافية: الحالة الصحية جيدة فالأهالي طوال القامة، منتصبوها أصحاب الجسم، ذوو لون أسمر غالباً، وعيون نجل فيها جمال البداوة والصحراء، وهم ماهرون جداً في السباحة التي يتعلمونها من سن الصغر، ويركبون الخيل. والاعتناء بالرياضة شديد وفي كل سنة يصير معرض في دير الزور يقوم فيه الطلاب والأهالي بمختلف الألعاب الرياضية، من العدو، إلى القفز، إلى ركب الخيل، إلى المباراة بكرة القدم، ولعب التنس. وهناك جمعية خاصة للاعتناء بالرياضة اسمها جمعية الألعاب الرياضية، تقيم مباريات الكرة، وألعاب التنس ما

بين وقت وآخر. والنهضة الكشفية عظيمة جداً فالطلاب 80% منهم أو بالمئة خمس وثمانون هم من ضمن أفراد فرقة المدرسة ويبلغ عدد الكشافين في نفس المدينة مقدار 800 . 1000 كشاف والأهالي يتحمسون كثيراً حين رؤية الكشافين يمرون من الأسواق، فالرجال يصفقون والنساء يرمون قطع الحلوى ويدعون الله بأن يحفظ الأطفال والدموع تترقرق في أعينهن فرحاً واعتباطاً. فمن هنا ندرك تماماً لماذا يكون الفرد قوياً صحيح الجسم. غير أن بعض أفراد (الشوايا) المحيطين بالمدينة فيهم بعض الأمراض كأمراض العيون والزهري الذي كان منتشراً بصورة فظيعة جداً والذي كاد يضمحل الآن نتيجة الجهود الفعالة التي قامت بها الحكومة. الحمامات في دير الزور قليلة فرغماً عن كبر المدينة وكثرة عدد سكانها فإننا لا نرى إلا حماماً واحداً وهذا نقص يجب تلافيه وتداركه. ماء الشرب نظيف ومصفى، والأكل بسيط جداً وغير متنوع، والنساء ماهرات بصنع (الشعيرية) الفاخرة وأحب ما يكون إلى الأهالي هو شرب الشاي بلونه الغامق ومائه المعقد وحلوه الكثير وأحب الأكل إليهم هو طعام (الفوره) وهي أكلة ديرية صرفة و (الثرود) و (الكماة). الحالة الأخلاقية حسنة وحوادث القتل والضرب والسرقا قليلة وعادية.

أما الحالة الثقافية فهي بحاجة قصوى لجهود جبارة فالطفل مشهور بذكائه وسرعة خاطره وشدة حفظه وقوة ذاكرته وهو يتعلم بسرعة جميع ما يلقيه إياه أساتذته. والمدارس الابتدائية عددها خمس منها واحدة للإناث والمدارس الأولية عددها ثلاث منها واحدة للإناث أيضاً، وهناك بعض المدارس الأهلية، وهناك مدرسة تجهيزية صفوفها غير تامة إذ ينقصها الصف الأول والثاني، وعدد طلابها قليل. ولا يوجد المدينة إلا مطبعة واحدة وقد أنشئت مجلة اسمها مجلة (الفرات) يحررها بعض أدباء المدينة ولكنه ألغي امتيازها بعد سنة من صدورها والمكتبات الخيرية العامة معدومة. وهناك محلان فقط لبيع الكتب والأدوات المدرسية. وعدد التلاميذ والتلميذات قليل بالنسبة لكبر المدينة وبالنسبة لغيرها من المدن السورية.

المباني الأثرية: دير الزور قليلة المباني الأثرية وليس هنالك ما يستحق الذكر غير أن قضاء الرقة مملوء بالآثار، وهناك بالقرب من قضاء الميادين قلعة (الرحبة) وبالقرب من قضاء البوكمال (قرية الصالحية) ذات القلعة المملوءة بالآثار أيضاً. والمدينة خالية من المزارات إلا مزار واحد قرب قضاء الميادين يسمى (عين علي) تقصده النساء من المدينة ويذبحن عنده الذبائح ويدعون الأدعية.